الخيمة في الحكاية الشعبية

د. الشايب ورنيقي (*)

الملخص:

يشارك الفَّضاء والحيِّز في صناعة الحكاية الشعبية، ويترجم بما يوافق معاني الانطلاق والحرية والاتساع في البيئة الصحراوية، وليس أمثل من الخيمة التي تعد منبت الأحداث إذ تساهم في صناعة الصورة السردية من خلال شكلها ولونها وطريقة بنائها والمكان الذي تبنى فيه وعدد أقسامها، كل ذلك يعد من المكونات الأساسية للسرد في الحكاية الشعبية، فهي الرمز والانتماء والهوية، وهي بناء جاد في الخطاب الحكائي في الحكاية الشعبية تروى بشكل أو بآخر حياة الأفراد، والجماعات تشارك في الحبكة وتصنع الحدث وتساعد في بناء الصورة في المروي الشفوي لهذا النوع من الأدب، فيا ترى ما الخيمة وما دلالاتها في مكونات السرد في الحكاية الشعبية؟

Abstract

Both the context and the scope take part in shaping of the popular story, and this all equals the concepts of break away, liberty and largeness in the desert environment. It can never be better than a tabernacle as a clear example, from which incidents emerge and contribute in the narrative scene, through its shape, colour, the way of its construction, the place of its installation and its types as well. All those features are considered to be main

(*) **د. الشايب ورنيقي:** قسم اللغة العربية وآدابها– جامعة الأغواط– الجزائر.

(ISSN : 2536 - 9555)

dimensions of the narration in the popular story; as it is the sign, identity and belonginess. It is also a serious construction in the telling discourse in the popular story, narrating in one way or another the individuals' lives. In addition, groups do participate in the plot and carry out the incident and help in formulating the image in the oral narration for this type of literature. Thus, what does the tabernacle mean and what is its significance within the components of narration in the popular story?

مقدمة:

الحكاية لغة: تحمل المعنى الحسي فهي من المحاكاة: كقولك حكيت فلانا وحاكيته فعلت مثل فعله، أو قلت مثل قوله سواء أو لم أجاوزه، تقول فلان يحكي الشمس حسنا ويحاكيها بمعنى: فهي محاكاة من الواقع، أو من استرجاعه رغم ابتعادها عن الصدق التاريخي، لكن الرواة يرونها والمستمعين يتقبلونها لأنها تعكس واقعا نفسيا يقتنعون به وبوجوده، ونتيجة تطور مفهوم الحكاية فقد تداخلت المحاكاة مع الخبر والسرد والقصص، وانتقل المفهوم من مجرد الإخبار بالواقع إلى الاهتمام بحدث قديم مرت الدهور عليه، والحكاية لا تهتم بالصدق التاريخي بقدر ما تهتم بالتعبير عن آراء الشعب وآماله، وطموحاته إزاء الحوادث وهي وإن كانت بعض مواضيعها مستمدة من الواقع الاجتماعي، ومعالجته فإنها لا تبقى أسيرته[1]. فالحكاية الشعبية ينسجها الخيال الشعبي حول حدث مهم وأن هذه القصة يستمتع الشعب بروايتها، والاستماع إليها إلى درجة أنَّه يستقبلها جيلا بعد جيل عن طريق الرواية الشفوية[2] وهي فن غايته القيم، مرتكزا على السرد المباشر، المؤدي إلى الإقناع والتأثير في نفوس السامعين يتخذ موضوعا له:

الأشياء الخيالية[3]. وقد يعني بالحقيقة التي يعدل فيها الراوي ويقحم فيها أمالي حياته ومحصلات مواقفه من الحياة.

وعلى هذا تكون الحكاية الشعبية شكلا تعبيريا شعبيا، يرويها الراوي، تدور حول حدث مهم في أغلب الأحيان، تعكس موقفا مهما في الحياة، هو موقف الجماعة المرددة لها، أو التي سبقتها مباشرة في الوجود، وتهدف إلى تحقيق ملائمة نفسية واجتماعية. توظف لتحقيقها شخوصا غريبة. مثل إدخال عناصر غريبة، أو إدخال عناصر غيبية تظهر وتختفي فجأة بناء على رغبة البطل أو حاجته، فإنها تقدم تبريرات يستسيغها المستمع إذا ما اتفقت مع عناصر بيئته المختلفة، وهذا من خصائص الحكاية نفسها[4] ففيها كل مقومات الأدب الشعبي من العراقة والتطور، بالإضافة إلى التعبير عن وجدان الجماعة، أكثر من وجدان الذات فهي عريقة وليست من ابتكار لحظة معينة، تنتقل بحرية بين الناس عن طريق الرواية الشفهية وتتسم بالمرونة.[5] ويبدو لغير المتمعن أن هذه السمات السابقة تحوي تناقضا جوهريا [6]، فمن جهة نجد العراقة من أهم خصائصها، باعتبار أن الحكاية ليست وليدة لحظة معينة، وفي المقابل نجد خاصة المرونة، التي تعني قابلية الحكاية للتغيير والتبديل عن طريق روايتها، وهو ما عبر عنه التعريف السابق، وهذا هو الذي دفع الباحثين إلى أنْ يقولوا أنَّ عدد الحكايات في العالم قليلا جدا إذا ما قيس بعدد رواياتها[7]، فقد نجد لحكاية واحدة أكثر من ثلاثة روايات، أو قد يشكل الراوي من حكايتين حكاية واحدة لسبب ما.

وتكون بذلك للبيئة الدور البارز من حيث أنَّها مجموعة من التصورات الذهنية المختلفة تطرحها مضامين الحكايات العاكسة لحالة إقرار ناتج عن اتحاد عالمي الذات والموضوع، وانعكاسهما على بعضهما في نظرة واحدة شمولية تتعلق بقضايا

(ISSN : 2536 - 9555)

اجتماعية وثقافية، معتقدية لها صلة وثيقة بما تزخر به البيئة الاجتماعية كعاكس للممارسات اليومية، في ضوء مجموعة من القيم.

إنَّ التصورات المختلفة التي تشبعت بها الحكاية الشعبية هي أصلا تصورات الجماعة المرددة لها انحدرت إليها عبر حقب وترسب في أعماقها بحيث لم يعد بإمكانها التنازل عنها أو تركها طواعية لأنها مازالت تؤدي وظائف منها تحقيق الموائمة النفسية والاجتماعية لدى تلك الجماعة، في ظروف معينة بدرجات متفاوتة حسب تطور المجتمع، ووفق تأثره بعناصر حضارية زاخرة يمكن أن تحل محل الراوي. أمَّا عن الخيمة في الحكاية فهي فضاء واسع وذا أبعاد كثيرة، فيا ترى ما الخيمة وما دلالاتها في الحكاية الشعبية؟

الخيمة علامة دالة على مستوى حضاري مرتبط بطبيعة الحياة في البادية عامة والصحراء خاصة، فللخيمة أهمية كبيرة في حياة البدوي الملائم لإقامته، والرفيق الأساسي لترحاله، فهي مأواه الضروري، فيها يتزوج وينام ويعيش، وينشئ أبناءه، ويَستضيف ويُستضاف، كما أنَّها تحميه من حرارة الشمس صيفا وشدة البرد شتاء، إضافة إلى سهولة نصبها وتفكيكها وحملها خلال التنقل وراء الماء والكلأ.

لعل طبيعة الحياة في القبيلة العربية، قد وفرت البيئة المناسبة لاجتراح ثقافة مخصوصة، فضلا عن إبداع عدد من الفنون الشعبية الجميلة، إلى جانب ما عرف عنها من أدب فصيح وخاصة الشِعر، ففضلا عن كثير من أجناس الأدب الشعبي مثل الشعر والأمثال والسير والأقوال المأثورة والطرائف والنوادر... ، هناك متون غنية بالقصص الشعبي على وجه التخصيص.

فلا شك أنَّ الخيمة كانت مكانا لرواية الأنواع المختلفة من الحكايات الشعبية للأطفال، إذ تضطلع الأم أو الجدة أو الأخت الكبرى أو غيرهن من القريبات، بتخفيف ثقل الأماسي وملل الليالي الطويلة، بالحكايات العجيبة والغريبة المشرقة، فضلا عن السعي لنوم الأطفال بواسطة روايتها، إلى جانب حافز نقل الخبرات وتوسيع التجارب وتوريث القيم النبيلة لأجيال المستقبل، لاسيما وأن البيئة الصحراوية بما فيها من شساعة وأهوال وبطولات، في حقل خصب لتوالد الصور والكوابيس المرعبة، مما يغذي الخيال ويخصب الذاكرة، ويضاعف من حجم انتاج الحكي وتلقيه وتداوله داخل القبيلة، مما يساهم في تراكم المنجز السردي الشعبي البدوي، على أن الملاحظ كون الخيمة هي ذاتها أضحت من مفردات المتخيل الشعبي، نتيجة للبيئة الصحراوية، علما بأنَّها قد تحولت إلى فضاء لكثير من الحكايات البدوية[8]، ويشارك الفَّضاء والحيِّز في صناعة الحكاية الشعبية، ويترجم بما يوافق معاني الانطلاق والحرية والاتساع في البيئة الصحراوية، وليس أمثل من الخيمة التي تعد منبت الأحداث إذ تساهم في صناعة الصورة السردية من خلال شكلها ولونها.

وطريقة بنائها والمكان الذي تبنى فيه وعدد أقسامها، كل ذلك يعد من المكونات الأساسية للسرد في الحكاية الشعبية، فهي دلالة الرخاء والنبل والكرم، كما هي دلالة عن مبادئ الأفراد والجماعات في التعامل مع الطبيعة وحالة التنقل الدائم في حياة البدو فهي الرمز والانتماء والهوية، كما هي دلالة عن الحالة الاجتماعية وكذلك السياسية، وهي بناء جاد في الخطاب الحكائي في القصة الشعبية تروى بشكل أو بآخر حياة الأفراد

(ISSN : 2536 - 9555)

والجماعات تشارك في الحبكة وتصنع الحدث وتساعد في بناء الصورة في المروي الشفوي لهذا النوع من الأدب والفن.

يختار البدوي الخيمة لأنَّها تناسب حياته بكل مراحلها، فيقال "البيت" و"الخَيْمَة" و"العَشَّة" و"هَدْلاَسَة" وغيرها من المسميات التي توافق مشاهد الحياة والحالة الاجتماعية وبإمكان الملاحظ أن يشاهد هذه الفروقات في حيثيات السرد الحكائي في القصة الشعبية فالبيت أو الخيمة لا تليق إلاّ بالشيوخ والحكماء والأغنياء، ممَّا يورث الجاه والقوة والمكانة أو في أحيان قليلة تليق بالأفراد الذين تحولت حالتهم من سوء المعيشة إلى الرخاء والغنى ليظهر مشهد الظلم أو المكر أو السيطرة، كما تنسب "العشّة" و"الهَدْلاَسَة"[9] للفقراء والخدم.

والعبيد أو للأرامل والأيتام أو للرعاة حسب حالتهم الاجتماعية التي تعكسها الخيمة أو حتى الأثاث المنزلي، أو تضرب لمن خالف الطاعة أو خرج عن الولاء من أبناء الأعيان والأغنياء لتأديبهم، كمل كان يفعل تماما بالصعاليك في الجاهلية.

والخيمة أو البيت هي أكبر المساكن تتكون من ثلاثة أقسام مهمة، يرجع كبرها حسب الغنى والمركز، فالوسط أوسع الأقسام وأوفرها أثاثا وأرحبُها للضيوف، تصنع "الطَرِيقَة"[10] الوسطى مزخرفة لتحمل المعاني والرموز القومية وحتى الدينية، بل تتجدَّد في كلِّ عام لتظهر مكانة صاحبها، ويعد الوسط أوفر الأقسام حظًّا في الوصف والرّمز أيضا في القصة الشعبية، كما يعد المكان الموضوعي للأحداث الرئيسية المتعلقة بالكرم والضيافة وأصول القوم وعاداتهم وغير ذلك مما يعكس البعد الثقافي والسياسي (لِلْعَرَشْ) أو القوم أو حتى الأفراد.

أما جانبي الخيمة فيسمى الأوَّل "المَّلَكْمَة" وهي للجهة أو الناحية، أي "لَكْمَة" أي الجنب وعادة هي للنساء والجلوس والنوَّم، أماّ الجهة الأخرى فهي "الخَالْفَة" لإعداد الطعام ونشوء الأسرة، وكل هذه الأقسام لها دور أساسي في الحكاية مثل:

"الرجل موجود في الخَالْفَة ميِّت"[11] ينم أنَّ الحدث تطور والسّرد تقدم نحو أحداث غير عادية، لأنَّ الرجل ليس مكانه "الخَالفَة"، ولكن ليستفز القارئ ويتساءل، ما الذي أتى به إلى "الخالفة" وهي مكان للنساء؟، وهو رجل غريب.

كما تتبع وصف الخداع، الغيلة، السّر، الخيَّانة، وغيرها من هذه المعاني ترتبط بهذين القسمين، بينما الوسط في الخيمة أكثر وضوحا للأحداث وحتى الحوار، أمّا ما يسمىَّ "بالِعَشَّة" فهي خيمة أقل قيمة من البيت، صاحبها إمَّا فقير معدم أو خادم، أو ليس من القوم حتى تظهر من خيمته هذه القيمة الاجتماعية أو حتى تعكس محطة من محطات السّرد مثل "أحمد الرغدة"[12] الذي كان فقيرا لا قيمة له بين قومه له "عشة" لا تقيه الحرُّ ولا البرُّد، وهي تدل على معاني السُّخرية والتقليل من شأن الشخصية، مثل الأرملة واليتامى وغيرهما.

وهذا الشكل يشارك بصورة فاعلة في موضوع الحكاية الشعبية، إذْ في الغالب تذكر بهذه المعاني ولكنَّها سرعان ما تنقلب بيتا وخيمة لها قيمة فاعلة في تناسب مع تطور أحداث القصة أو تحوَّل إلى مكان مفعم بالحركة بعد أن كانت هامشية ففي قصة:

"حَبْ حَبْ رُمَّانَه"[13] بعد أن مرضت الفتاة ويئس أهلها من شفائها تركوها في "عشَّة" مع خادمتها إلى أن طغى عليها التراب وطما عليها الغبَّار حتى لا تكاد تُرى، وكلُّ ذلك ليلائم السرد ومشهد المرض والمعاناة الطويلة وتردي الحالة والفقر والضعف.

(ISSN : 2536 - 9555)

مثلما تشارك في الحدث هذه الخيمة الصغيرة "هَذْلاَسَة"، وهي أكثر تعاسة من نظيرتها و أكثر شؤما وارتباطا بالذُّل وخيبة الأمل، لا تصلح للسكن وإنَّما صاحبها معدم لا يكاد يملك شيئا غير هذه القطعة التي يمكن أن تكون قد أخيطت من قطع تسمى "قَرَارَة" وهي كيس من أردأ النسيج وأخشنِه وأكثره شَعْرًا لا شيئ من الصوف فيه.

تشارك أيضا في الأحداث الثَّانوية خاصة، حيث ترتبط بالوصف النَّفسي الدَّرامي أكثر من الخيمة، لأنَّها تحمل معاني البؤس من جهة ومن جهة أخرى تفتح أفقًا نفسيًا يسمح بتبني حوار " مونولوج" ذاتي يزيد من عمق المشكلة أو العقدة عموما، كما تشارك بفضائها حياة الشخصيات في تطورها الدَّرامي، حيث تمثل مرحلة من مراحل حياة الفرد داخل النسيج الحِكَائي والسردي، فالأعزب الفقير مثلا الذي تخلَّى عن حياة الأسرة لابدَّ أن تبدأ حياته بهذه الخيمة أو "الهَذْلاَسَة" لكي تظهر المعاناة في اطارها الزَّماني، والذي يستبشر به في الحكاية الشّعبية، لأنَّ صاحبها ستتغير حاله إلى الأحسن ويتغير بذلك مسكنه وعتاده.

كما لعبت دورا مهما في حكايات الغول والسُّعَالَى، لأنَّها غير آمنة ومفتوحة من كل جهة وبالية ممَّا يجعل دخول الغول ومداهمته للخيمة سهلة ممكنة ويجعل ساكنها أكثر رعبا لأنَّه لا يستطيع حماية نفسه داخلها، ولا أن يراقب جهاتها المهلهلة والبالية، وهي بهذا الوصف أكثر رعبا وأقل أمنا من الخيمة الكبيرة، كما أنَّ مكانها القاصي وبعدها عن التجمعات والقبيلة يجعل منها مكانا أكثر إبرازا لمظاهر الخوف ومشاهد الفزع.

وقد ينعكس هذا الفضاء على أصحابه وساكنيه، فالمرأة فيها تشقى في ترقيعها وخياطة جوانبها المتهرأة باستمرار، وكأنَّه عمل إضافي يزيد من شقاء المرأة

بالإضافة إلى أعمالها الأخرى المضنية، كما تعكس صورة المرأة وبشاعة لونها ومنظرها الذي يصور المعاناة حقا، أما الرجل لا يكاد يفارق الحطب والرعي ولا يعود إلاَّ ليلا ليجد التعاسة مجسدة أمامه في أثاثه البالي ومكانه الخالي من الدفء والطمأنينة.

تعد الحكاية الشعبية أولى النماذج السردية في الخطاب الشعبي المحلِّي بعد الحكمة والمثل ولأنَّها طويلة زمنيا وتحتاج إلى عرض درامي ونسج سردي ونمط حكائي يتوقف بالدرجة الأولى على الراوي ثمّ على المتلقي، وعلى لغة السّرد والحكاية، فالراوي يتحكم في بنى السرد والشخصيات لكنَّه لا يحوِّل المركز ولا يغير المحتوى القصصي، وكذلك المتلقي يخلق عوالم درامية إضافية لاستيعاب المغزى ويجدد لغته القصصية في كل مرة لكي ينقل الخطاب مرة أخرى لسامع ومتلقي آخر، كما تختلف لغة الحكاية الشعبية وتخضع لابستيمولوجيا عامة تتعدى الشخص الواحد لتشمل مناطق جغرافية أوسع نطاقا وعيّنات اجتماعية مختلفة.

وهذا ربما السبب الوحيد الذي جعل الحكاية تبقى وتستمر مع استمرار الإنسان، لأنَّها لو كتبت لماتت في إطارها اللغوي المكتوب، ولكنَّها باقية شفوية تناضل البقاء وتواجه التحولات الدلالية للثقافة عموما. ولذلك ورغم الصعوبات التي تواجه نقل هذه النُصوص من واقعها إلى واقع أكثر أكاديمية وأكثر ضيقا من المستويات المعروفة للحكاية الشعبية أردنا كتابة بعض الحكايات التي رأينا غزارتها المعرفية المتراكمة عبر أجيال تصوّر الوعي المعرفي الذي وصل إليه الإنسان في هذه المنطقة بالذات ومدى مشاركة هذه النُصوص في إرساء هذه المعرفة وهذه الثقافة.

(ISSN : 2536 - 9555)

من بين النُصوص التي حاولنا كتابتها "حَبْ حَبْ رُمَّانَه" الذي يحتوي على جميع مستويات الحكاية من الإطار المعرفي (البيئة، التاريخ، الإنسان، الحيوان...)، إلى الإطار السَّردي ومستوياته المختلفة (الوصف والحوار) إلى الأشكال الدرامية التي تصور الموضوع (العجائب، الخرافة، الأسطورة...)، وربما كانت هذه الحكاية على غرار ما وجدنا من حكايات أخرى متشابهة تحتاج إلى تسجيل صوتي ممن يتمتع بقوة الذاكرة وخصب المخيلة وسلامة اللغة الحكائية. وحسن الأداء السّردي للشّخصيات وغيره، لذلك عمدنا إلى تسجيلها وكتابتها لنتدخل فيها نحن أيضا ونظهر خلف البؤر السّردية ليتشكل موضوعها محافظين على الفكرة والسرعة والعتبات ليبقى النص شعبيا قدر الإمكان. كما حافظها الرواة وتناقلها المتلقون الذين أصبحوا هم رواة بعد ذلك.

أ - الإطار الزماني والمكاني للحكاية الشعبية:

لم يحدِّد الراوي زمن الحكاية إلاَّ في قوله: "كَانْ بَكْرِي"، "كَانُوا حَاطْيِنْ فِي وَادِي زِينْ". وفعل الماضي هذا يتم عن التَّاريخ المجهول للحكاية، لأنَّها كلما ضربت في الماضي صعب استرجاعها، وغابت مصادرها وذلك ليفتح الراوي أمامه بابا يستطيع أن يتحكم فيه فيدخل ما أراد من أحداث وحيثيات من قريب أو بعيد تعينه على رسم الصورة الحكائية ووضع خطواتها على مستوى سرعة السّرد أو بداية النَّص المنقول فعلا جيلا عن جيل.

وقد ساعده في الحديث عن الماضي والرُّجوع بالنَّص إلى الخلف ذكره بعض العادات القديمة كالحياة في البادية والترحال وتصوير فهم النَّاس للوجود والماهيات المختلفة عن الطبيعة وعن الحياة. وتدخل بعض قوى الشَّر والخير في مصير الشخصيات، ليفتح أيضا جانبا دراميا غاية في الإمتاع ممَّا يجعله من مميزات

الحكاية الشعبية فعلا. كما يتحكم الرّاوي في سير السَّرد واستذكار واستشراف الزمن لتظهر تقنية السّرد بوضوح.

وممَّا أظهر الزمن وأبرزه بشكل واضح وجود بعض الأشياء الدَّالة على التّراث والعادات القديمة مثل الأواني واللِّباس والمراكب والبيوت وحتى النباتات والأدوية التي لها ارتباط بالحياة البدوية القديمة، وكذلك بعض ما ذكر من عادات النَّاس والأسر، الألعاب الخاصة بالمجتمع القبلي والتي تعد على وقتنا إمَّا خارجة عن المألوف والعادة أو حتى عن الدّين والقيم الشّرعية، وكلُّ ذلك توظيفا من الرَّاوي ليرجع بالزمان إلى الماضي السّحيق ليكون النَّص أوليا خامًا كأنَّه خال من أي تحريف وزيادة، وربَّما ليوظف بعض هذه اللمسات لتظهر مقدرة الرَّاوي على التَّذكر واستذكار ما هو قديم، وهذا يتم عن أصل الحكاية التي تدعو إلى موضوعها الاجتماعي بالدرجة الأولى، بالإضافة إلى الموضوعات الجمالية كالطُّرفة والاستئناس والتسلية لما فيها من غرابة وعجائبية.

وقد لعب المكان دورا لارتباطه الوطيد بالزَّمن فكان ناطقا باسمه في كثير من محطات السّرد حيث ينوب عنه مباشرة في تجسيد ما هو قديم، ومن ذلك ذكر البيئة الصحراوية ووصف أماكن الكلأ والمراعي والارتحال والأدوية والنَّباتات وكذلك بعض الحيوانات كالجمال والحمير والأنعام والوحوش كالطير والسِّباع والضِّباع والهوام كالأفعى (الحَنَشْ) والعقارب هذه التي لا توجد إلاَّ في أماكن مفتوحة كالصَّحراء التي تسمح بوجود مثل هذه الأشياء، وقد وظفها الرَّاوي أحسن توظيف حيث جعلها تشارك كلها في عقدة السّرد والبؤر المختلفة للحكاية، كما شاركت هذه الأماكن وهذه الهوام شخصيات الحكاية وعاشت معها.

ب - الشخصيات:

(ISSN : 2536 - 9555)

كوَّنت شخصيات هذه الحكاية مرجعا أساسيا تحرك الأحداث، وتنقل الخطابات المختلفة التي تعكس صورها الفوتوغرافية وتصف ملامحها الملائمة للسّرد والزّمن، والحدث والمكان، كما كونت أيقونات متعددة ساهمت في بناء الحكاية دراميًّا وبسطت أفكارها لتصل الحكاية إلى المغزى والهدف.

الإخوة سبعة والأخت واحدة. دارت بينهم حوارات مختلفة جعلتهم يتشاركون في الأحداث الرئيسية مثل "الرِّحلة"، "الصيد"، "الإقامة"، "الوعدة والمعروف"، وبنت الشخصيات الرئيسة أحداثاً ثانوية لها دور كبير في أحداث الصراع الداخلي والخارجي مثل صراع الإخوة على القيادة، انتقال هذه الخلافات إلى النِّساء ليظهر الخداع وتظهر الدسائس والمكر والظلم والغدر والحسد وغيرها من المجالات التي تتفاعل الشخصيات فيها مع بقية الأفراد الفاعلة في الحكاية. وتظهر الخادمة الوفيَّة والأم الحائرة وزوجات الإخوة الماكرات والمدبرات للمكائد من سحر و شعوذة وطقوس، وتظهر البطلة في كل مشهد من الرخاء والشدة، ومن الصحة إلى المرض ومن الاجتماع إلى الفرقة والوحدة.

ج - الأحداث:

الحدث مكون أساسي في بناء الحكاية الشعبية، وله دور فاعل في سير السَّرد وتحريكه أو سكونه، ومنه تبنى الانفعالات والسكونات والحركة في الحكاية الشعبية فالأسرة المتكونة من الإخوة والأخت الوحيدة، تحول محاور الحكاية بعد أن كانت مستقرة في البداية وتظهر أحداث فاعلة كموت "الأم"، التي أوصت بابنتها الوحيدة، وضمنت كفالتها من إخوتها وخاصة الكبير منهم، تزداد تعقيدا بعد ظهور الغيرة والحسد، ثمَّ سحر البنت البريئة والكيد لها، ثمَّ مرضها الشديد، وتركها وحيدة مع خادمتها في فيافي الصَّحراء تكابد المرض والوحدة، ثمَّ مرور زمن طويل في

المعاناة، ثمَّ إنقاذها من طرف الصَّياد، وعيادتها إلى أن شفيت ثمَّ رحلتها في البحث عن إخوتها، وبعدما وجدتهم اكتفت بالنظر من بعيد دون إخبارهم بحقيقتها كما أن السَّارد يغير من تسارع السّرد ليعرض الصّور الملائمة للوصف، لا يدع الشخصية تتكلم، بل يتكلم عوضا عنها، مثل وصفها وتصوير البطلة قبل تفاقم الأحداث، "كانت طفلة صغيرة كي جدية لـدْمِي، ذِيكْ الشّبة تقول غزال شَّبْ لْصَّيَادُه، وذاك العَرْنِينْ كِي مْسَقَمْ، وَبْدَنْها تْقُولْ عَاجْ ـ طَفْلَة مْدَلَّة ـ وَالثْيِثْ اللّي رَبِي أعْطَاهَ لْهَا تْحِير فيه أسود قَرْطَاسْ، غرابي، كثيف وطويل واملس ناعم كأنها قطعة قمر في ليلة سوداء معتمة، لا تمشطه، ممشوط من عند ربي، وعينها سوداء كحلي، مُولات 17 عام ولا 18 عام كأنْها ملاك نَزَلْ على الأرض، وإذا تزينت خرجت عليهم مَاتُو كَمْد أو غِيضْ مَنْ حُسن طلعتها وبهاء لونها... "(14)

ولكن عندما تتغير الهيئة السَّاردة يتحول السَّرد مثل كلامهن عنها وهن يحسدنها على جمال شعرها وطوله وحسن لونها وإشراقة بشرتها: "تقول إحداهن: "هاذ الخبيثة كانش ما دير لشعرها... أمها دست لها عقاقير أو تفعل شيئا وتخفيه عنَّا... ترد الأخرى، لو كان نقدر نْقَصْوُلْهَا وندير له نكاية لفعلت، أنا جربت كل شيء ولكن لا جدوى، لازم نحرقها حتى تتشوه وتعود كيما حنايا أو نفعل ما نفعله... وترد الثالثة: نقتلها ونتهنا وحنا في الثلاثين وهي ما زالت شابة...

د - بنية الزمن وعقدة الصِّراع:

تبدأ العقدة من موت الوالدة وبقاء البنت وحيدة مع إخوتها وزوجاتهم، بعد أن كان الزَّمن آنيا يتنوع ليكون استذكاري يراجع فيه الرَّاوي حياة البنت قبل تفرق العائلة، و يكون آنيا لينمو الصَّراع وتتزايد الصُّور الدرامية في حوارها الدَّاخلي وحوار إخوتها مع زوجاتهم وكذلك حوار النسوة مع بعضهن، ويكون استشرافا

(ISSN : 2536 - 9555)

حينما يهيأ الرَّاوي بؤرا سردية تحتوي على هذه الأزمنة الثلاث. "ليلة من الليلات كانت واقفة على باب الخيمة سمعت صوت أمها وهي تناديها، تناديها، فاقشعرَّ جلدها، ودمعت عيناها وهي تسترجع صورة والدتها تأتي البيت جالة لها حليب ناقتها مبتسمة ضحكة تدندن من نشوتها وفرحها ثم تعيد صورتها لتجد نفسها وحيدة في بيت شعر والريح تقول أشياء خرافية، وترى البيوت وقد أوقدت نيرانها للسمر والألفة، وهي تعاني الوحدة والفراغ فتستشرف حياتها برجل من الزمن البعيد يملأ وحدتها ويؤنس وحشتها، وتظل هكذا حتى ينام السّمّار وتغيب الأنوار ولا تبقى سوى النجوم ترعى فراغ الّسماء."(15)

هـ - التحولات السّردية:

نستجمع الصَّورة الحكائية في قصة "حَبْ حَبْ رُمَّانَه" من خلال تحويل السَّرد من الرَّاوي الذي يعد الهيئة الساردة الأولى إلى الشخصيات الفاعلة التي تكون القصة، و يتبنى السَّرد العام هذه السّرود المختلفة لضمان الصورة الحكائية والوصف الدرامي للأحداث أو الشخصيات أو حتى اللغة، وتتبنى السّرد كل من الأخت وهي تصف حالها قبل تغير أحوالها إلى الأسوء والاستقرار العاطفي قبل وفاة الأم، وتنقل صور التآلف والاتحاد الظاهر على الأسرة، ثم تنتقل إلى وصف المكر والخداع والكيد، مصورة بشاعة الشر وعواطف الحقد وأساليب الدهاء، لننظر آثار الغيرة بينها وبين زوجة الأخ الذي يرعاها ويقف على شؤونها وكذلك تنقل بلغة خاصة اجتماع النِّسوة على الأذية ومدى الحقد الكامن في نفوسهن، لنقرأ المعاناة والتعب والنصب الذي أصابها جراء ما فعلن بها، وتظهر حنكة الرَّاوي في اختيار الصُّور التي تلائم هذه الأحداث وهذه الشخصيات

وتغيير اللغة من وضع إلى وضع آخر في بناء مستمر للدراما في الحكاية ذاتها فلغة الأخت المقهورة التي تعاني الكيد والدسائس غير لغة المرأة الحاقدة وجماعتها التي تستعمل أساليب التعريض والقدح والهجاء والسّخرية والاستفزاز.

الخاتمة:

كونت الصّحراء فضاءً دراميا غاية في التنامي يتماشى مع الصُّور والبنيات الحكائية في تناسق مستمر، من الرخاء إلى الجدب، ثم العكس، تماما من الجدب إلى الرّخاء هكذا ليشارك الفضاء المفتوح سمة السّرد ونمط الحكاية.

*/ الخيمة مكون أساسي من مكونات الفضاء السردي للحكاية الشعبية.

*/ تشارك في البناء الدرامي للسرد ووصف المكان وكذلك الشخصيات، وإعطاء صورة فنية تعكس نضج الخطاب الفكري والاجتماعي للفضاء بصورة عامة.

غير أننا هنا، لم نهتم سوى بتأكيد حضور الخيمة في عالم الحكاية الشعبية البدوية خاصة حيث تبين أن هذا الحضور قد اتخذ شكلين بارزين هما: الخيمة فضاء والخيمة أداة، من خلال الموقعين، تمكنت الخيمة في الحكاية الشعبية من أن تحتضن كثيرا من مبادئ وقيم البدوي، من مثل: الكرم الإيثار، الإغاثة، الأنفة، والعزة، تحمل المسؤولية ومواجهة الصعاب، وكذا اعتقاداته وتقاليده المختلفة، وفي المقابل، تزري بسلوكات غير أخلاقية مرفوضة، مثل: الاعتداء، الاستبداد، البخل، الأنانية، الخداع، وما إليها، وتلك هي الوظيفة الأساس التي يرمي إليها هذا الحكي عبر فضاء الخيمة، نقصد بتثمين القيم السامية والإزراء بأضدادها، من أجل تسهيل الحياة المشتركة في البيئة البدوية الصعبة.

الهوامش :

(ISSN : 2536 - 9555)

[1]– جمال الدين بن مكرم بن منظور، لسان العرب بيروت (د.ت) المجلد الرابع عشر، ص141.

[2]– عبد الحميد يونس، معجم الفولكلور بيروت 1983، ص114.

[3]– المرجع السابق، ص114.

[4]– نبيلة إبراهيم، اشكال في الادب الشعبي ، القاهرة (د.ت) ، ص140.

[5]– عبد الحميد يونس ، معجم الفولكور ، ص114

[6]– عبد الحميد يونس ، الحكاية الشعبية ، ص11.

[7]– صالح بن حمادي ، دراسات في الاساطير والمعتقدات الغيبية، تونس 1983، ص138.

[8]– مصطفى يعلى، القصص الشعبي بالمغرب، دراسة مورفولوجية، المدارس، الدار البيضاء، 2001 ، ص 124.

[9]– جمع المصطلحات شفويا من لقاء مع الحاج عمر العيساوي المولود خلال 1940، المقابلة كانت يوم 2015/10/22م.

[10]– سميت "الطريقة" لأنها تشبه الطريق ، تقسم الوسط إلى قسمين و قد تأتي بلون مخالف لتظهر وتوضع في خشبة بثلاث ثقوب لترفع العمود الأوسط، وتسمّى القُنطَّاس والعمود الأوسط يسمّى الرَّكيزة.

[11]– حكاية "ودعة" لقاء مع الحاجة أم الخير المولودة سنة 1936، المقابلة يوم 2016/9/11م.

[12]– قصة قصيرة من رواية الحاج البشير من مواليد 1931 بالأغواط"، مقابلة معه يوم: 2016/03/16م.

[13]– لقاء ومقابلة مع الحاجة حدَّة فرشانمن مواليد 1942 بالأغواط ، راوية معروفة بتاريخ: 2015/11/12م.

[14]– لقاء ومقابلة مع الحاج محمد منصوريمن مواليد: 1931 بالأغواط ، اللقاء بتاريخ : 2013/03/14م.

[15]– إحدى المسامرات مع الجدة فاطمة عويسي من مواليد الأغواط ، راوية معروفة جدة الباحث رحمة الله عليها.